مجلة الآداب، م٢٦ ، ع٣ ، ص ص ٢٥- ٥٠ ، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

الحِيَافَة وَالحَنْشَلَة قبل تكوين الدول المعاصرة

فضل بن عمار العماري

أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض

(قدم للنشر في ١٤٣٥/٦/٢٥ وقبل في ١٤٣٥/٧/٨هـ)

الكلمات المفتاحية: الغزو، قطع الطريق، الحيافة.

ملخص البحث: مرّت الجزيرة العربية بفترات- قبل تأسيس الدول المعاصرة، وشمل ذلك أيضاً بوادي الشام والعراق، والأردن، إضافة إلى تهامة والسراة وبعض أطراف اليمن- عدم استقرار، فانعدم فيها الأمن، وخلت من السلطة، فكانت كل قبيلة تشكّل كياناً خاصّاً في بواديها، وتتولّى السيطرة على موارده. وكان من الطبيعي أن يحدث صراع بين القبائل، على أوسع نطاق، فيما كان يُعرف بـ "المَناح، أو أبعد من ذلك "الكَوْن"، أو حتى الغزو بمفهومه المتعارف عليه. غير أن هناك ناساً، فرادى أوجماعات محدودة، مارست الغزو بطريقة مختلفة، اعتمدت على قطع الطريق، أو التسلّل إلى ديار الآخرين- خارج نطاق القبيلة- فتنهب، وتسلب، ثم تعود أدراجها إلى منازلها، وكان كلّ ذلك محموداً، مقبولاً، ولا ضير فيه عندهم جميعاً. أما الأفراد، الذين قد يزيدون قليلاً، فمفردهم "الحايف" أو "الحَوّاف"، والجماعة "الحُوّاف"، وأما الجماعات، فهم "الحَنشَل"، وواحدهم "الحنشولي". مع أن التسمية الثانية هي الشائعة، ولا سيمّا في شمال الجزيرة العربية، وحَرّاتها. هدف الأولين، وهم غالباً يبتعدون في غاراتهم الليلية- أو حتى التصبيح- الإبل، وهدف الآخرين أيّ شيء يقع في أيديهم.

يتوجه الباحث بالشكر لمركز البحوث بكلية الآداب، على دعمه هذا البحث.

بين الصعلكة والحيافة/ الحنشلة

لسنا بصدد الحديث عن الصعلكة في الجاهلية ومقارنتها بما يطرحه بحثنا هنا بتاتاً، ذلك أن كل من كتب عن موضوع الصعلكة سار على ما أرساه أحمد أمين ويوسف خليف، ثم شوقي ضيف، لا استثناء في ذلك بين أبناء المملكة العربية السعودية وسواهم، حتى إن أبو ديب مثلاً يقول: "يبدو بجلاء أن ما يميّز شعر الصعاليك أمران: ١- انتماء الصعاليك إلى طبقات أو فئات اجتماعية هامشية، محرومة، أو ملعونة، أو ساقطة اجتماعيّاً أو اقتصاديّاً، وتسمح هذه الحقيقة بتصوّر العلاقة بين القبيلة والصعاليك في إطار مفهومي الداخل/ الخارج. ٢- كون شعراء الصعاليك، للمرة الأولى في تاريخ الشعر العربي يلغي الوحدة الاجتماعية الاقتصادية السياسية التي تشكّل ضمنها الرؤية المركزية، أي القبيلة، ويطوِّر نظاماً من القيم والفاعليات، ومعالجة شعرية جديدة تتشكّل من إطار فئة أو طبقة اجتماعية

محدّدة"(أبوديب، ١٩٨٦م، ص٥٧٥. وانظر، أمين١٩٥٢، ص١٩؛ خليف، ١٩٥٩م، ص ص١١، ٥٣، ٥٨؛ ضيف،١٩٧٧م، ص٣٧٥).

ولعل العالم الوحيد منذ أن بدأ البحث في الأدب العربي القديم، الذي أشار إشارة عابرة فقط إلى علاقة موضوع البحث بالصعلكة هو عاتق بن غيث البلادي، في قوله عن الشنفرى:"الشنفرى رجل حَوّاف، حوّام"(البلادي، ١٩٧٩، ج٤، ١٨٩).

وعندما يصف البلادي الشنفرى هذا الوصف فإنه كان على دراية تامّة بهذا المصطلح، وبأحوال أمثال الشنفرى قبل قيام الدول المعاصرة، ولاسيما المملكة العربية السعودية.

ولاشك أن ابن بليهد، وكان عالماً، خبر حياة البدو، وعايش بعض أحوال (الحنشل)، وأطلق كلاماً عامّاً يربط بين الحالتين، حين قال: "في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر كان ثمة جماعة من اللصوص البارعين كانوا أجرأ من جحدر وغيره من الذين لهم ذكر"(ابن بليهد، ١٩٧٢، ج٢، ص١٥٣).

إن ابن بليهد لا يميّز في الحقيقة بين العصور التي مرّت بها الجزيرة العربية، إذ كانت الدولة الإسلامية في العصر الأموي تطارد أولئك الذين يشير إليهم وتنبذهم قبائلهم نفسها، فهم "لصوص"، حسب التعريف الشرعي، أما (الحنشل)، فهم يعيشون أحراراً، يقومون بأفعالهم على مرأى المجتمع نفسه ومسمعه، فيغير بعضهم على بعض، مع فارق يسير جدّاً وهو الاصطدام بالسطلة مباشرة. وفي ذهن ابن بليهد تشابه الأوضاع الحُرّة هذه التي يكون فيها (الحنشل) دون نظام مستقرٍّ يردعهم، كما هو الحال حتى مع صعاليك الجاهلية. ومن هنا قال:

"اللصوص تجتمع في تلك الناحية لانتظار الحاجّ... وأما الأرض النائية فهي تتسع على اللصوص ويمكن أن يخطىء اللص الحَاجّ فيها، واللصوص تفضّل حوّاج العراق على غيرها، أو حوّاج عُمَان؛ لأن في حُجّاج البلاد النائية غِرّة ولا يحسنون الاحتفاظ من اللصوص"(ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٢، ص٥٣. حَوّاج: حُجّاح).

ولعل قول بوركهارت يقطع الجدل حول نسبة هذيل إلى الصعلكة حين يقول: "تحتل قبيلة هذيل منطقة منحدرات الجبال التي على الطريق من الطائف إلى مكة، وبخاصة جبل كرا.... هؤلاء قطاع طرق جسورون جداً" . بل إنه يقول عن "طويرق"، من ثقيف، التي تقطن جنوباً عن هذيل فوق الجبال نفسها: "لهم صيت بأنهم نهابة محترفون" (بوركهارت، ١٣٤٣هـ، ص٣٢٦).

مفهوم الحيافة

هناك إجماع على تسمية ماقبل قيام الدول المعاصرة في بوادي الجزيرة العربية وبادية الشام والعراق بـ "زمن الفوضـــى"(العبودي، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٢٦٩. وانظر، ج٢، ص٥٠٢، ٨٢٢)، أو "زمن الخوف"(العبودي، ١٣٩٩، ج٦، ص٢٣١٦)، حتى إن أحد الدارسين يقول: "إنه يفوق ما كان عليه العرب في الجاهلية الأولى، فالسبل غير سالكة...."(الحربي، ١٤٢٣، ص٣٧).

يقول العبودي: "الرُّفق: الأعرابي الذي يكون من القافلة لكي يحميها من جماعته من الأعراب، لقاء أجر

معلوم... القافلة أو الجماعة آمنة من أن يذهب لصوص بما معها من الإبل"(العبودي، ١٤٣٣، ص٢٨٧).

وهذه أمور تقرّها الدراسات العلمية الحديثة، ويثبتها الموروث الاجتماعي المعاصر. ولكننا ينبغي هنا أن نضع في أذهاننا تفرقة فاصلة بين ذلك الزمن وبين قيام تلك الدول، فكل من قام بهذا بعد ذلك، تُعَدّ أعماله إجرامية، وخرج عن أن يكون حنشوليّاً أو حايفاً. بل تتبرأ منهم قبائلهم، ويُطاردون، وتُعَدّ لهم السجون والأغلال. وعلى العموم، فلبيان مفهوم الحيافة والحنشلة، نأخذ تعريف ابن منيدل القائل: "المغازي أنواع: نوع قِلَّة، وهم المتسللون يمشون ليلاً في محلّ الخوف، ويختفون بالنهار، ويتخطّفون إما من طوارف الدبش المعادين بالمفالي، وإلا حيافة بالليل عند العرب، وهي تبع التوفيق"(ابن منديل، ١٩٩٢، ج٦ ص ١٤٧).

ويقول: "اشتهر بنو شيبان بالحيافة، وهي اختلاس الإبل، لشجاعتهم وجرأتهم وشدّتهم وقوّتهم؛ والحيافة تقتضي المشي على الأقدام مسافات طويلة مع حسن التصرف ولطافة الحركة"(ابن منديل، ١٩٩٠م، ج٥، ص٩٦).

ويذكر عن فليح الشمري: "من جرأته على الحيافة ومهارته فيها أنه إذا ذُكرت له فرس أصيلة أو بندق طيبة باعها وقبض ثمنها وهي لا تزال عند مالكها لأنه واثق بأنه سيسلبها بالحيافة"(ابن منديل، ١٩٨٣م، ج٣، ص١٨٢).

ويقول عن أحدهم: "صاحب تسلّل، وهي الحيافة، يختطفون من الأعداء... سيراً على الأقدام"(ابن منديل، ١٩٩٥م، ج٧، ص٩٨).

أما ابن بليهد، فيقول عن شنبر بن كاحل، من الشيابين، وكان شاعراً حنشوليّاً: "وجدت رجلاً وخطه الشيب، كأنه سبع... سمعت قصيدة لم تكن لتصدر إلا عن شاعر بليغ"(ابن بليهد، ١٩٧٢، ج٢، ص١٥٤).

ويقول العبادي في ردّه على اتهام البدو بأنهم لصوص: "البدو يقدّرون الغازي ودوّاس الظلما (قُطّاع الطرق) يسطو على أعدائه وينهب من أموالهم وحلالهم...ولو سمينا الغزاة لصوصاً لجاز لنا أن نقول: إن البدو جميعهم لصوص لأنهم جميعهم كانوا يغزون"(العبادي، ١٩٧٦، ص٤١٨). ويقول التلّ: "النهب... يعتبر القائم بهذا العمل من ذوي النجدة والشجاعة يضيف إلى أمجاده قبيلته صفحة ناصعة فينال الإعجاب والاحترام، ويعد النهب في الواقع غزواً...وينظر البدوي إلى السلب والنهب والغزو كعمل مشروع... ضرب من البطولة" (التل، ١٩٩٩، ص٣٦٤). ويقول العبودي: "الكسب: الغنيمة في الحرب أو في السلم، تؤخذ من الأعداء على طريق الانتهاب أو الاغتصاب أو السرقة. ولا يرون في ذلك بأساً من ناحية العُرف على اعتبار أن أعداءهم يتربّصون بهم ليفعلوا بهم مثل ذلك الفعل. هذه ناقة كسب، وتلك غنم كسب، أي مأخوذة عنوة من الأعداء"(العبودي، ١٤٢٣هـ، ج٢، ص١١٠١).

كما يقول في وصف عملية النهب: "الحايف: ...الذي ينتهب الإبل في الليل، يأتي ليلاً متخفّياً متلصّصاً يلتمس غِرّة من أهلها، وغفلة من رقيبهم، فيأخذ منها ما استطاع أن يأخذ، أو يقبضون عليه. وغالباً يأخذ منها قليلاً، يقتصر على بعير أو بعيرين،

لأنه يصعب عليه أكثر من ذلك، إلا إذا كان يفعل ذلك مع رعاة أو ناس مع إبلهم يقيمون بعيداً عن محلة البيوت في الصحراء. وكان المسافرون في القوافل قبل استتباب الأمن خلال الحكم السعودي ينادون في الليل بعضهم بعضاً قائلين: (عليكم حوف تنبّهوا وانظروا...). يريدون أن هناك...منتهبين يحاولون أن ينتهزوا غِرة منكم، فيأخذون من أموالكم أو دوابّكم". (العبودي، ١٤٣٠هـ، ج٣، ص ١٦).

ونجد مثل هذا الوصف في قول ابن منديل عن مجموعة من (الحُوّاف)، وليس واحداً، وعن أخذهم مجموعة من الإبل، وليست عدداً قليلاً: "متسلّل ومن معه وعندما قربوا طوارف الدبش تسلّلوا على الأقدام مع الشجر وفيه أباعر على طرف كثيرة والعرب ماهو بعيد فقال لرفقته أكفيكم واحتال بالراعي وإن زهمتكم افزعوا لي فراح صوب العرب وترك الراعي خلفه ونطحه يمشي كأنه من العرب ولا سلاح معه إلا عصا جليلة..."(ابن منديل، ١٩٩٢، ج٦، ص١٤٧).

ويقول ابن بليهد: "الحنشل أغاروا عدواً على أقدامهم"(ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٥، ص٢٩١. وما أجمل ما وصف به بعض أحوال أولئك الحنشل، انظر، ص٢٩٦- ٣٠٨).

ويقول العجمي: "محمد بن ضبان بن خرصان من آل هتلان من العجمان رجل حنشولي ويجيب الطماعه من القوم باستمرار، ورجّال يقطع الفرجه"(العجمي، ١٩٨٢، ص١٢٩). ويقول العصيمي: "اشتهر شويمي الشيباني في زمنه بالحيافة وعُرف في أغلب الأوساط بسرعة جريه عند الانهزام"(العصيمي، ١٩٩٥، ج٢، ص٤٣٢).

كما يقول: " ذلول مشهورة بالجري أخذها الجدعي من الموهبة من مطير حيافة مع جملة إبل" (العصيمي، ١٩٩٥، ج٢، ص٤٣٥).

كان هؤلاء الحنشل والحُوّاف في نظر البدو فرسان، يقول الراوي: " في... المجلس...]يتداولون[...الأحاديث عن الغزو والحنشلة والشجاعة"(الراوي، د - ت، ص٢٨٦).

ويقول المطيري: " يتم الاستيلاء على الخيل والإبل إما عن طريق الغزو المباشر على القبائل، أو عن طريق الحيافة، وهذه الأخيرة يقوم بها عدد قليل من الرجال، وربما يكون شخصاً واحداً فقط، حيث يقوم بهذه ليلاً بسرية تامة، تحت جنح الظلام"(المطيري، ٢٠٠٠، ص٥٣٥).

ويجمع ابن منديل بين الحيافة والحنشلة، فيقول: "حرمة من عتيبة، مات زوجها ولها أطفال، وعافت الرجال من شأنهم، وفي ليلة وهم راقدين، ورحلتهم ذلول، ومن الخوف عليها من المتسلّلين بذلك الوقت تبيّتها... وهم راقدين، وفي ليلة انتبهت إذا فيه حنشولين حوف، واحد يفك عقال الذلول والثاني واقف على رأسها في يده قناة..."(ابن منديل، ج٧، ص٥٠. وانظر، ص ٢٢، ٩٧- ٩٨، ١٨١).

كما يقول بشكل عام عن ناس من حرب، مشيراً إلى مصطلح "الفوضى"، والحظْ أنه يشير إلى أنهم أفراد، وليسوا فرداً واحداً أو اثنين: "كانوا يتسللون وقت الفوضى على بعضهم بالليل يختطفون من المواشي في

الظلام يتفرقون ويتواعدون آخر الليل الكاسب والمفلس ثم ينهزمون بما غنموا أو ينجون بأنفسهم من الخوف" (ابن منديل، ١٩٩٥، ج٧، ص٢٢).

ويقول: "الغزو أقسام حسب قلّته أو كثرته، فمن قليله (الحنشل) وهو يتألف من ٢- ٣ رجال مشاة، يباغتون أبناء السبيل المنفردين العزّل ويسلبونهم... ومن الغزو القليل ما يسمونه (الحُوّاف) وهم ثُلّة من اللصوص المغامرين يتسللون ليلاً إلى حِلَل البدو وهم نائمون، ويسرقون ما تصل إليه إيديهم"(زكريا، ١٩٨٣م، ص٢٤٩ والحظْ أنه يستخدم جملة "يسرقون"، وهي جملة تأتي بديلاً منها "يأخذون").

ومن ثم، قيل عن شليويح العطاوي: " نشأ هذا الشاعر على الشجاعة، والحيافة، وهي التسلل مساءً إلى أماكن القبائل المعادية، وأخذ ما يريده، ولّما اشتهر لدى قبيلته بشجاعته، وقوة بأسه، جعلوه قائداً لهم، رغم أن أهله ليسوا ببيت زعامة، وكان مقداماً، لا يهاب، وحكماً بينهم حتى في قسمة الماء والمشاكل، كما أنه يضحّي بنصيبه من الماء والطعام لرفاقه عند الحاجة، لذا صار محبوباً ومرغوباً من جميع قبيلته، حتى إنه اشتهر صيته لدى القبائل الأخرى، وصار له سمعة حسنة، لخصاله الحميدة، وأشعاره السلسة"(ابن منديل، من آدابنا الشعبية، ج١، ١٩٨٤م، ص١٦٧). ومن طريف ما يتعلّق بالحنشلة أنه: "من حرص العرب خوفاً على كرائم أدباشهم من الحنشل (يخافون عليها من أن يسرقها الحنشل) يقومون في الصباح الباكر بمراقبة آثار الحنشل ووجدوا ذات مرة آثار رجليه عدة مرات ولم يفقدوا في صباح ذلك اليوم أيّ َشيء لا مال ولا حلال"(ابن منديل، ٢٠٠٣م، ج٩، ص٩٢). وهذا يدلّ على أن ما يأخذه (الحنشل) لا يقتصر على (الحلال): الإبل، وإنما يأخذون أيَّ شيء يقع تحت أيديهم. وهنا علينا ألاّ نخلط في الظواهر، فنجعل الحيافة والحنشلة، ظاهرة ككل الظواهر في كل بقاع الدنيا، في شرق العالم أو غربه على حدّ سواء، كما في الأدب الإنجليزي حيث يتمثّل هذا في شخصية "خرافية"، وإن كانت ارتبطت أدبيّاً بزمن الحروب الصليبية، وهي شخصية "روبن هود" مثلاً الذي كان يسطو على الأغنياء ليعطي الفقراء. وكما في مصر مثلاً حيث نشأت هذه الظاهرة في العصر الوسيط، وعُرف أصحابها في الأدب الشعبي "بالشُّطّار والعيّارين"، فلا مقاربة أبداً بين أولئك وهؤلاء؛ فـ(الشطّار والعيّارون) خارجون على الشريعة أوالقانون، وهم في كل الأحول مطاردون، وأولئك غير مرفوضين من عشائرهم وأقربائهم، وهم مقبولون في مجتمعاتهم.

قطع طريق الحاجّصادفتنا عبارات ومفردات مثل: "السبل غير سالكة"،"دوّاس الظلما (قُطّاع الطرق)"، "كان المسافرون في القوافل قبل استتباب الأمن خلال الحكم السعودي ينادون في الليل بعضهم بعضاً قائلين: "عليكم حوف تنبّهوا وانظرو"، وسنصادف أمثالها فيما سيأتي من حديث، ولكن قطع الطريق شمل الحجّاج كذلك، وهذا الشريف بن هزاع يقول عن بعضهم:

حطوا مساكين الغريب اتْجاره

يا علٌ بها ما ينمي لهم مالود

وبعده:

يقولون ديرتنا وهذي شكلهـــا

يا عل ديرتهم تروح خمـــود

(كمال، د ت، ج٢، ص ص ١٣٠- ١٣١).

البوق: يقول كارل نالينو: "كما يفعل في أيامنا المعروفون بالبَوَّاقين عند شمَّر والحجاز الشمالية"(نالينو، ١٩٥٤، ص٧٢). وهذه أول إشارة مميزة لحالة الحياف والحنشل، ومفهوم "البواقين" هنا لا يعني ما ارتبط به من سلبيات، وإنما هو ناحية إيجابية، إنها تشترك هنا تحديداً في معنى (الحنشلة) بالذات. يقول العبودي: "البوق: الغارة المفاجئة التي لا يسبقها إعلان حرب، كأن يظهر قوم عدم رغبتهم في غزو قوم، أو على الأقل عدم إعلان الحرب عليهم، ثم يغيرون عليهم فجأة، ودون أن يُظهروا نيَّتَهم بالإغارة عليهم"(العبودي، ١٤٢٣هـ، ج١، ص٧٦).ولتوضيح هذه العبارة- فيما يخصّ بحثنا- فإن قوله: "البوق: الغارة المفاجئة"، وحده ذو صلة بالموضوع، وبما ذكره نالينو. وإن تداخلت معاني عبارته مع معاني أخرى خارج بحثنا، وإن كان هناك لَبس في بقية العبارة، ربما جاء توضيحها عنده في موضع آخر حين يقول: "البوق: الغارة المفاجئة...فهي هنا نقيض (النقا)، فالنقا، وبعضهم يقول: (وَضْح النقا) هي أن تُعلن أعداءك بأنك سوف تغير عليهم وتقاتلهم. يقال في هذه الحالة: فلان أغار على بني فلان على وضح النقا، أي مظهراً ذلك غير مستتر به"(العبودي، ١٤٣٠، ج١، ص١٠٦). حقّاً، تحمل الكلمة معنى سلبيّاً في العرف القبلي، إذ معنى (البوق) في مثل هذه الحالات يعني خرق الأعراف القبلية بالاعتداء على ما هو متفق عليه من السلم والموادعة والمهادنة فيما بين أبناء القبيلة نفسها، وكذلك فيما بين القبيلة أو القبائل الأخرى المتعاهدة معها. ولكن كلام العبودي لم يميّز بين نوعي الغارة، وكذلك ما قاله نالينو. ولعل الاثنين يقصدان (الحنشلة) أو الحيافة)، أو أن الأمر اختلط عليهما.

الهدف من الحيافة: أما الهدف من الحيافة أو الحنشلة، فنجده في مثل قول شويمي:

كمني ما أقطع العاني وأعينه وأشبع الجيعان

بحقي دون وجهي واجب تتميم عانيّه

(ابن بليهد، ١٩٧٩م، ج٢، ١٥٣). وكان الاستخذاء والاستجداء منقصة لدى البدو، ولهذا قال شليويح يذمّ من لا يسعى في كسب رزقه بيده، معتمداً ما بحصيلته من إرث ومال:

زاري على اللي عسى أبوه للنار

متبجح في مال أبوه الميات

ما قط يوم فيِّهوا له بمعبار

وأنا الشتا والقيظ هذي سواتي

(العبودي، ١٤٢٣هـ، ج٢، ص٨٦٣، وانظر، ابن منديل، ٢٠٠٣م، ج١، ص١٦٩. ابمعيار: بغزو) يقول عبد الله بن هذال المطيري، مفتخراً بالغزو، ذامّاً من يتوانى عنه: ويا زين تهاوي خِلفها والمعاشير يوم الرِّدي مفلس ولا هو بيغنم (الأصقه، ص١٢٤).

كان الميل إلى الدَّعة والسلامة، وتجنب المخاطرة والمجازفة في وسط اجتماعي يؤمن بالقوة وتأمين عيشه بالغزو والسلب والنهب، يعدّ غير جدير بالرجال، وإنما خاصّاً بالنساء، فهذا:

"شخص....رغم ما أعطاه الله من الصحة والعافية... همّه دائماً أن يتّبع الولائم، وإذا غزت قبيلته يجلس مع النساء والرجال ينتقدون الذي مثل هذا، ويلمزونه

بالكلام، فالرجل الذكي النبيه يعتدل ويعمل ما يعمله غيره من الرجال... قال راضي [السبعة من عنزة، وهو فارس شاعر]: ألا إلى شاف الوليمهة بطوني

ويضحك إلى منه من الزاد ترْقا"

(اليوسف، ١٤١٢هـ، ج١، ص١٢٧).

ولاريب أن الظروف البيئية أوجدت مثل هذه الأوضاع، فكما يقول جحش السرحاني:

ياما تمسعرت القبائل تقل ذيب

من خوفتي يقصر عليكم عشاكم

(ابن منديل، ١٩٨٥م، ج٤، ص١٣٩).

وسنرى أن من دوافع الحيافة/ الحنشلة إغاثة الحايف أسرته وجماعته:

ما ياخذ إلا من خيار المتالـــي

عيّش عليها اضعوف ربعه بلا سوم

إن كل القبائل العربية في بوادي المملكة العربية السعودية تعرف (الحايف)،أو (الحَوّاف) والجمع (الحَوّافة)، وهم الذين يحوفون (حيافة الإبل) أي: الذين يختلسون الإبل، والكلمة لها أصل عربيّ في "حاف / يحوف"، أي: طاف بأطراف المكان، وكانت كل أرجاء المملكة العربية السعودية قد خبرت "الحنشولي"أو "الحنشلي" و"الحناشل" / "حناشيل"، وهم "يحنشلون" وهؤلاء يعدون على أرجلهم، وهؤلاء وأولئك من البدو.

ولم يقتصر هؤلاء على سرقة الإبل، ممّا يقع في متناول أيديهم، من غير أبناء جلدتهم وعشيرتهم، أو من ينتمون إليه من قبيلتهم، دون تفريق بين غنيّ، ذي إبل كثيرة، أو فقير، لا يمتلك إلا بعضاً منها، بل كانوا كذلك، يترصدون الحاجّ، فينهبونه. أما "الحايف"/"الحوافون"، وترجمته خطأ Robber, Thief..، فهو ممّن يبتعدون في الأرض، على طريقة (الحنشل)، ينهبون الإبل، بل حتى الخيل، إن تمكنوا منها، فيقطعون مسافات شاسعة، ويتحسسون ديار أولئك، يترقب أحدهم، ويتقدم آخر، ويكون ظهيراً غيرُهما، وهم ليسوا أفراداً، ثلاثة، أو أربعة فحسب، بل قد يزيدون عن ذلك، وقد ينقصون، وربما وصل العدد إلى واحد فقط. وربما تداخل المسميّان في هذه الأفعال بين (الحنشولي) و(الحايف).

فـ "الحايف"، إذن، يغير على أقدامه، باحثاً عن الغنائم في الفيافي والمتاهات. وهذا (الحوّاف) أو (الحايف)- وجمعه (الحوّافة)- وهو يمشي على قدميه، يقطع مسافات طويلة، مع حسن التصرف، ولطافة الحركة، وإذا ما أحدق به الخطر، جرى، وربما لقي أحدهم، أو بعضهم حتفه، وما من أحد منهم طرّح نفسه كل مطرح، وهو يخشى المنية أو يهتز عند الانطلاق. وعلينا التنبّه هنا إلى طبيعة (الحنشل) في نجد، فهم رَجّالة، مشاة، ولكننا وجدنا إشارات إلى استخدام (الحايف) للإبل، كما في قول شليويح الآتي:

يا من قلب عانق الفطر الفيح

كنه على كيرانهن محزومي

وكذلك، قول الشيخ ابن هدلان:

خاويت شبان على فطر شيب

كم مارد جيته تعاوى سباعه

وألم يقل النبيطي السبيعي:

لي فاطر فجّ الذراعين عيره

يا ليت قبري حط لي في نجيبها

وسنرى إشارات تؤكد اشتراك مجموعة من (الحنشل)، وهم هنا أيضاً (الحوّاف)، في أخذ عدد من الإبل يتجاوز الواحدة والاثنتين من النياق. فقد ذكروا: "هجم مجموعة من الأعداء (حنشل) على بيوت الدياحين ليلاً، وأخذوا مجموعة من الأبل، وهربوا بها تحت جنح الظلام، وقُبيل طلوع الفجر هبّ فرسان الدياحين للحاق بالحنشل، واقتفاء أثرهم"(المطيري، ١٤٢٠هـ، ص١٩٦).

يقول الأصقه: "عبد الله الجدعي المطيري غزاء، على عتيبة ورفاقه ثمانية أشخاص واتّبع طريقة الحوافه وتمكّن أثناء الليل من أخذ عددا من الإبل ومن ضمنها ذلول أبولاه العتيبي وبعد عام غزاء مرة ثانية على ذلول أبولاه الى ديار عتيبه واتّبع طريقة الحوافه وعندما جاء تحت طايح البيت يراقب صاحب البيت حتى ياخذه النوم..."(الأصقة، ١٩٨١م، ص٢٩٥).

وسنرى ما يدل على ترؤس أحدهم لمجموعة من أصحابه لـ (الحيافة)، كحالة (رفيع الركابي)، وكان (العقيد) مريبد العدواني العنزي أحد من كان يحوف، كما سنشير إليه.

وقد يخفق أحدهم في أن يصبح (حنشولي) أو (حوّاف)، فيخمل ذكره بين قومه، ومحيطه. وعلى كل حال، فـ(الحايف) في نظر المجتمع عامة، حتى من غير أبناء قبيلته، باستثناء النظرة الأخلاقية المتضمَّنة في معنى اللصوصية، هو شجاع، وجريٍ وقويّ Knight Beduin And Heroe.

وفيما يتعلّق بتفسير (الحيافة) / (الحنشلة)، فليس من دوافعها الفقر، أو الحاجة فقط، فـ(الحنشولي) قد يكون فقيراً، وقد لا يكون، فليس هو وحده الفقير في حيّه، أو في دياره، فكـل الناس سواء فيه، إلا من يمتلك الإبل الكثيرة، وهم الأغنياء، وهؤلاء قلّة، يرحّب معظمهم بأبناء عشيرتهم، ويرحّبون بغيرهم أيضاً ضيوفاً، وقد يمارس هؤلاء (الحيافة).

و(الحايف) معروف، في قبيلته، مشهور حتى بين الآخرين، ممن يغزوهم، أو من لم يصل إليهم إلا ذكره، وهو لا يُخفِي انتصاراته في مغازيه تلك، يفتخر بها، ويتغنّى، فالشعر كان عندهم وسيلة للتعبير عمّا يلاقُونه من مواجهات، ولم يكن (الحنشولي) على أيّ قدر، من ذلك، وإن قال بعضهم الشعر. هذا إذا وضعنا في الاعتبار المسمّى في جهات نجد، والمسمّى في شمال الجزيرة العربية وبعض أجزائها.

(الحَوّاف) فاتك، شجاع، يأتي بالإبل إلى جماعته كلهم، دانيهم وقاصيهم، كل لـه حق فيما يعدّونه كسباً / "غنىً"، أما (الحنشولي)، فينهب ما تطرَّف له، يحوزه لنفسه، إذ هّمه الكسب فقط. و(الحنشولي) يقطع الطريق، كما (الحايف)، إلا أن الأول يرضى بما فيه الكفاية، أما الآخر، فلا يرضى إلا بالمغنم، وذاك متردّد، وهذا مقدام فاتك، وكل هؤلاء جميعاً بين أهليهم، وذويهم، آمنين، مستقرِّين، مع تفاوت في المكانة الاجتماعية بين المجموعتين، ونظرة المجتمع لكل جماعة على حِدَة. وكل هؤلاء لا يّميزون بين من يسطون عليه، أكان كريماً أريحيّا، أم كان بخيلاً شحيحاً، فهم راحوا (يحنشلون) / (يحوفون)، ينتهزون الفرصة السانحة، لينهبوا ما قدِروا عليه، على حين غرة من أصحابه.

وإذا ما أجرم أحدهم جرماً يمسّ سيادة القبيلة وهو (المِجَنَّى)، طردوه، خلعوه، فهو (جَلاَوي) / (المُجْلى) أي: الذي أجلاه أهله، رغبة في كفّ أذاه، وتفادياً، من أن يجلب شروراً عليهم، وهو أيضاً (المهدور دمه)، فيذهب إلى غيرهم، ويكون (دخيلاً) عليهم، ثم يصبح جزءاً منهم. وقد يوقعون عليه العقاب، فللقبيلة حقّ عام، تطبّقه على كل منتهك لأعرافها وسيادتها من أبنائها، ولأهل المعتدى عليه حقّ خاص، ينفّذون فيه عُرفهم في القضية التي مسّتهم، والتي كثيراً ما تكون حول مسائل الثأر والطمع في أموال غيرهم، من قبيلتهم، أو الاعتداء على المستجير، وما أشبه هذا. وهذا الطرد أو النبذ، يختلف اختلافاً جذرياً عن (التخلّي)/(التشميس) المعروف في التراث العربي(التل، ص٦٦، ١٧٨- ١٨٣. وانظر، محجوب، ١٩٧٤، ص٢٠٧، حيث ذكر نظام "البراوة").

وليست (الحِيَافة) أو (الحنشلة) ضربة لازب، لا يفارقها المرء طيلة حياته، إذ يجد أحدهم أن عليه أن يتوقّف عن تلك الممارسات، إذا طرأ طارئ أو عرض عارض يدفعانه إلى ترك ذلك كله. وكثيراً ما يتوقّف أحدهم عن هذه الأفعال عندما يتقدّم به العمر، فيضعف. ويفسّر هذا ذلك الكمّ من الأشعار التي تركها أصحابها، بعدما تغّنوا فيها بماضيهم، فقصّوا مغامراتهم، وصوّروا حياتهم، وكيف عاشوا تلك الفترات من حياتهم.

إن (الحنشولي) يسطو على ما يقع تحت يديه، أو يقطع الطريق؛ لأنه خرج من دائرة الرجل المسالم في الحيّ، وكونه من عامّة العشيرة، إلى دائرة مستخدمي العنف والحيلة في الحصول على أي شيء يتمكن منه، وذلك في حدود إمكاناته؛ أما (الحايف)، فيمتاز بالشجاعة والبسالة والدهاء، وهو حين يحصل على الغنائم، يوزعها على أصحابه، ويكون له نصيب وافر فيها، وقد يتحمل مسؤولية قبلية، فلا يحتفظ بالمال لنفسه، بل يشاركه فيها غيره، وهو ذو مجلس مفتوح دائماً، ومن هنا يظل هذا الشجاع الفاتك الباسل... الخ فقيراً، لا يتستثمر المال أو ينميه.

الجدير بالذكر أن من يمارس النهب والسلب من أهل السَّراة وتهامة غير (حناشل) و(حُوّاف) البدو في بقية ما يكوّن الآن المملكة العربية السعودية، فهؤلاء ليسوا أصحاب إبل، وإنما أصحاب الإبل في تلك الأرجاء الأخرى، وهؤلاء يأخذون ما يتمكنون من حمله ويعدون به، فلم تكن المفردتان (حنشل) و(حايف) معروفتين عندهم، وقد كان أهل جبل (فيفا) في أقصى الجنوب الغربي للمملكة يتعرضون لهجوم مباغت من جيرانهم اليمنيين بني مُنبّه، في جبل العر في اليمن قبل الحكم السعودي، وكان الذي يمارس ذلك يقال عنه: (يغزو)، حتى إن أولئك كانوا يأخذون معهم بعض الرجال أسرى فيما يأخذون، وهم أيضاً (الخرج)، وهؤلاء يَعْدُون، إذن، فالوضع الذي ذكرناه عن (فيفا) هو في مفهومنا أهل تلك المنطقة (غزو)، ولكنه ليس غزو مواجهة أو جماعة غازية، وإنما تسلّل واختفاء، ثم سلب ونهب، وهذا هو وضع (الحنشل نفسه)، إلا أن هذه التسمية هنالك غير معروفة. وبالتأكيد، فهم لا يستخدمون الإبل، وإنما يأتون على أرجلهم، وينطلقون عادِين. وهذا هو ما تفرضه الطبيعة الجبلية الشاهقة

والوعرة والمتشعبة والطويلة في السراة عامة، إلا أن زهران تسمّي أولئك الذين يأتونها من بني مالك، جيرانهم، (حنشل)، ومن أعمالهم قطع الطريق. وهم يعرِفون الحايف ذلك الذي يذهب بعيداً في النهب والسلب. أما أولئك (الحنشل) و(الحوّاف) الذين في البوادي، فكانوا يأخذون قطعان الإبل، وربما استخدموا الإبل، بل إن تضييق مصطلح (الحنشل)، يؤدي إلى حصر أعمالهم في بعض مناطق نجد إلى الحصول على ما يتمكنون منه.

أما أن (الحايف) يستخدم الإبل في تنقله، فهذا أمر وارد أيضاً، نجد عبيد بن زريع العدجاني: "في ذات يوم طلب ابن زريع... ذلولاً (من الهجن) لمحاولة التسلل عليها إلى إحدى القبائل المعادية لعله يظفر بغنيمة تثلج صدره وكانت الذلول غير مطواع (غير مطيعة) وكان يبحث عن أحد يرافقه، فلم يجد فقال:

والله لا اجيب السرق لين ياتيك

والعقل وانتي يا ذلولي سموحي

(العصيمي، ١٩٩٥، ج٢، ٥٠٣).

ولا بد من التأكيد أن (الحايف) و(الحنشولي)، وبالرغم مما بينهما من تمايز أحياناً، وتشابه أحياناً أخرى، فإنهم في العادة يأتون متخفِّين، غير أن هذا ليس ديدنهم، فربما جاؤوا جهاراً نهاراً حين يستضعفون الخصم، أو يجدون الفرصة مؤاتية، ولا بأس في الحالتين من التصادم، بل القتل، إن كان ذلك اضطراراً؛ فما الفرق ثانية بين هؤلاء وأولئك الغزاة الذي يصبِّحون غيرهم وكلٌّ يهدف إلى السلب والنهب ؟

ولم يكن أحد من هؤلاء إلا تجمعاً قبليّاً، ولم تطرد أية قبيلة أحدهم أو ترفضه، بل كان يعود بكسبه فَرِحاً، على أنه غزو، تشاركه فيه عشيرته.

وهذا وذاك في نظر أهله وذويه سيّد، وشجاع، ومقدام، وشعر هؤلاء كثير، في موضوعات (الحيافة) و(الحنشلة) خاصة، وفي غير موضوعاتهما. وكثيراً ما طار صيت (الحايف)، فبلغ خبره أسماع القاصي والداني، إعجاباً وتقديراً، يتناشدون أشعاره، ويحكون قصصه في مسامراتهم. و(الحناشل) و(الحُوّاف) كلهم كالذئب سطواً. وبينما كانت بعض القبائل تسمّي بعض رجالاتها: (الحايف)، ولا ترى غضاضة في ذلك، كانت قبائل أخرى لا تُعير أهمية لهذه التسمية، إلا أن أفعالهم هي أفعال (الحَوّافون)، أي: هؤلاء وهؤلاء، كلُّهم يغزون، فهم يغيرون على مراتع الإبل من غير إعلان حرب، فيسلبونها اختلاساً، فإذا ما وقعت مواجهة، كان القتال، وهذه هي حال كل غزو، ما دام الهدف منه هو استياق إبل الآخرين في غفلة أهلها، وهذا خارج الأيام، والصراعات المعلنة (الكون) و (المناخ).

كل ذلك قبل تكوين الدول،وسيادة النظام والقانون، أما عندما قامت المملكة العربية السعودية مثلاً، فقد أصبح كل من يقوم بذلك يعد مجرماً، وهو مطارد منبوذ.

يقول سليمان الفليح: "الحنشلة وكانت ضرباً من الشجاعة والبسالة وكان الحنشولي يهب (ويُحذي) إذا سأله أحد فقراء القبيلة (الحذية). وحينما ضبطت الحكومات سلوك الخروج على القانون..."(الفليح،

ع١٤٦٠٠، (١٤٣٣/١١/٢هـ - ٢٠١٢/٩/١٨م، ص٧).

ومع كل هذا، فالتفرقة بين الحايف، والحنشولي، والغازي، تفرقة دقيقة جداً، فربما سمّى بعضهم (الحايف) (حنشولي)، وربما كان العكس - عدا مناطق الجبال والحرات التي لا تعرف إلا الحنشولي. وتأتي المشكلة من تسمية الغازي، فالحايف أو الحنشولي - على عموم إطلاق هذه التسمية - يأتي صباحاً، يترصد، ويتحسس، ويغير على الإبل (الحلال) ليلاً، أو حتى أول المساء، بينما يأتي الغزاة في وضح النهار، ويصبّحون إبل الآخرين، فينهبونها، إنهم جاؤوا مستعدِّين للمواجهة والقتال، فإن طردهم المغيرون عليهم، التحموا بهم، وهذا وذاك في المعنى سواء، ويُشْبه هذا الوضع قطع الطريق، فإذ يَعُدُّ بعضهم هذا العمل حَنْشَلَة، أو حتى حِيَافة عندما يواجه الحايف إبلا سارحة، فإن آخرين لا يرون قطع الطريق كذلك، إنه عندهم كسب وقوة، مع أنه يتم أيضاً خدعة. وغالباً ما يأتي الحايف أو حتى الحنشولي، ليلاً، بينما يأتي المغيرون غالباً علناً في الصباح (تصبيح). الحايف كما يستدل من اسمه يتطرَّف ويتطرَّق، والغازي له وجهة معينة، ومع ذلك، فـ (الحايف) كثيراً ما يتوجه إلى مناطق خاصة.

عرفت المجتمعات البدوية "الخلع"، و"الإجارة"، و"الاستجارة" وكان قانون (الدَّخَالة) وشعاره (تعليق العاني)، مبدأً مقرَّراً عندهم، والطنيب و(الجيرة). يقول راكان بن حثلين:

فالى زبنا مجرم ضامه النيا
لكنه بعيطا نايفات حيودها

(العبودي، ١٤٢٣هـ، ج٢، ص٨٦٤).

ويقول صقار القبيسي الفضلي في الشيخ علي السليمان:

ينصى الحريب اللي على الكود صبار
الشيخ علي هو زبـــون المجنّى

ثم يقول:

واللي زبنا زابن ضلع سنـجار
وان صار حــرب دونها ما نتونا
ترى الخوي والضيف والثالث الجــار
مثل الصلاة والفرض وتزاد سنا

(ابن منديل، ج٥، ١٩٩٠م، ص٢٢٣).

ويقول سليمان الفليح: "الدَّخالة تعني أن يستجير بك الرجل ويدخل إلى بيتك ويصبح في وجهك وعليك حمايته مهما كان ذلك الرجل ومهما كانت جنايته" (الفليح، ع١٣٩٩٨، ١٤٣٢/٢/٢١هـ، ٢٠١١/١/٢٥م ص٧).

وفي كل هذه المجتمعات فقراء، ولم يفرِّق أولئك بين كريم وشحيح، فهم غزاة، يضحّي أحدهم بنفسه ليكسب، وكانت مجالس كبار القوم مفتوحة، كما كانت الضيافة غير قاصرة على السادة والرؤساء، ولم يخرج من خرج لـ "يحوف" أو "يحنشل"، ليعيث فساداً في ديار قومه، وإنما ذهبوا بعيداً بعيداً، والغريب أنه ليس من بين هؤلاء أحدٌ من الموتورين المستذلّين، فهم كانوا من صميم القبيلة، تلك القبيلة التي تربطها رابطة النسب

مهما تباعدت فروعها(زناتي، ١٩٩٣م، ص ص ٤٢٦ - ٤٣٩).

ولم تذكر المراجع أو المرويات الشفهية أن أحداً من هؤلاء كان من العبيد أو سواهم، ولم يقم العبيد أو مَنْ في مستواهم بهذه الممارسة قط، ولو أن هؤلاء وأولئك- أحراراً أو غيرَ أحرار- انفردوا بأنفسهم وأموالهم، لاجتاحتهم القبائل وأبادتهم.

كل ذلك قبل تكوين الدول، وسيادة النظام والقانون، أوتطبيق الشرع، أما عندما قامت المملكة العربية السعودية مثلاً، فقد أصبح كل من يقوم بذلك يعد مجرماً، وهو مطارد منبوذ، ولم يعد مسمّى (الحنشولي) أو (الحايف) موجوداً، بل هو لصّ، تُقام عليه الحدود. وقبل الحكم السعودي- مثلاً- كانت هناك مفردات: الحايف، والحنشل، والحنشولي، إلى جانب الغزو، والكسب، وليس هذا بغريب ففي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية لم ترد عند قبيلة بني مرة مثلاً الصفة: "الحايف" أو "حنشولي"، ومثل هذه الأعمال- ومنها قطع الطريق- تُعَدّ عندهم كسباً أو غزواً. وكان كثير من المواطن الحضرية داخل المملكة العربية السعودية اليوم، وسواها من أطراف الجزيرة العربية كالكويت مثلاً، محصّنة بأسوار ذات أبواب، وذلك صدّاً لغارات الأعداء وهجمات البدو، ومن الطريف أن الحوطة – حوطة بني تميم التي كانت مسوّرة، بل محصَّنة أيضاً طبيعيّاً بالجبال المحيطة بها- اشتهرت بموضعين كان (الحنشل) يأتون إليها منهما، وكان من شروط إجارة المستجير بها الا يمارس (الحنشلة)، ففي الجنوب الغربي (عين الحنشل)، و(شعيب الحنشل): موضعان متقاربان، وموضع آخر في (العجيمي). ومن وسائل الاحتياط من هجوم الأعراب: "الصَّنْقَر: هو المرقب، أي البرج العالي الذي يُبنى للمراقبة في مكان مرتفع من البلد. وكان وجود الصنقر، بل الصناقر ضرورياً لهم... لكثرة الغُزاة والمغيرين والمتهبين إذ يحتاجون للمراقبة"(العبودي، ١٤٢٣هـ، ج١، ص٦٢).

وكانت هناك مواضع مشهورة يتجمّع فيها هؤلاء، مثل: "ركبة"، و"بُسيان"(ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٢، ص ص١٥٢- ١٥٥؛ و"العَلم" (ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٣، ص١٨٥. وانظر، ج٤، ص٢٣٩)؛ و(أبرق الضيّان) (العبودي، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج١، ص٢٦١)، و(المِلدغ) (العبودي، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٦، ص١٢١٦). وكانت المراقب معروفة.

شعر في الحيافة والحنشلة

يوضّح بقيران الشيباني الذي اشتهر بالحيافة في زمنه، دوافع (الحيافة)، فيقول:

حنا نبا الستر والخاطر يبا العيشه
والعلم يا زريب يوم الدول يا طاني
يا رازق اللي قليلات محاويشــه
ما له تيوس سوات تيوس خشماني

(العصيمي، ١٩٩٥م، ج ١، ص١١٧ . ابن جنيدل، ١٩٧٩، ج١، ص٦٠).

ويقول زيد بن عمير:

واحد إذا أسعده القدر صار حايف يا موطّين روس النشاما توطّه

(ابن منديل، ١٩٩٥م، ج٧، ص١١٨).

وكانت (الحيافة)- والحنشلة- حسبما هذا المسمّى، خاصة بالبدو، وهذا ما يحقّقه قول فواز الشهلي عن البوادي:

شيخهم جالس وتاليهم يروح
للطوارف والدروب محنشلين

(الحاتم، ١٩٨١، ص٨٦).

والغريب أن الشاعر استخدم في شعره مصطلح (الأعراب)، متأثراً بالقرآن الكريم.

أما (الحيافة) نفسها، فأصداؤها كثيرة جدّاً، ولعل قول جحيش السرحاني، من أهل الجوف، الذي مرّ بنا، يكشف عن طبيعة التسلل، وإن لم يذكر الحيافة، فكونه يأتي كالذئب، والذئب رمز البسالة والقوة، والجرأة، فهو (سبع) الجزيرة العربية في التراث العربي، فصيحه وشعبيّه، يدل على شدة المخاطرة، حتى إنه يتنقّل بين القبائل، فهو هنا حقّاً (حائف):

يا ما تمسعرت القبايل تقل ذيب
من خوفتي يقصر عليكم عشاكم

(ابن منديل، ١٩٨٤، ج٤، ص١٣٩).

ويقول طايل السلات، من ذوي عطية، من عتيبة، وهو من الشجعان، وعادته الحيافة، وقد بيّن كيف يأتي في ظلمة الليل، ثم كيف يحتال ليأخذ النوق خلسة:

يا فطري مشيك مع الدوّ ترحيـــل
ترحيل ربدا روّحت للدِّحِيّـــه
حلفت ما نتلي عليك الزماميـــل
ولا اشيل من فوقك زهابٍ وريه
الله لا رزقٍ يجي معْ هَلِ الخيـــل
واكوارهن للنشامى فضيـــه
حلفت انا اضوي ليا هوّع الليل اللـــيل
متهذلف ضيف لجزل العطيه
واصبحت الاحي لي نياق شماشيل
مهديني المولى عليك وعليه

ابن منديل، ١٩٩٠م ج٥، ص٨٦).

ويقول بريك بن محمد الأسعدي الروقي يمدح أحدهم بأنه "حوّاف ظلما":

حَوّاف ظلما طامسات نجومه
يصطي إلى حَبّ المنام جضيع

(ابن منديل، ١٩٨٤، ج، ١، ص١٦٠). أو هو بتعبير آخر "دوّاس ظلماء"(العبادي، ص١٣٢).

ويقول شالح بن هدلان في الشيخ محمد بن هندي الذي سقط عن ظهر قعوده، يدعو على (قعوده) بأن ينهبه (الحوّاف) إيضاحاً منه لهذا العمل المعتاد بينهم:

عسى قعودٍ ودّره ما يخرف
ياليت حَوّاف الغداري سرى به

(القحطاني، ١٩٩٤م، ص٢٠).

ويقول همام بن عايض الدوسري، مؤكداً أن ما لديهم من إبل امتلكوها (حيافة)، ومن يمتلك تلك الإبل ليس واحداً، بل هم كثيرون، فهذه العمل عمل مشروع عندهم، غير مُدان:

ذيدانا من حَفّنا كاسبينها

(القحطاني، ١٩٩٤م، ص٢٣).

وتقول امرأة من شمر، في إشارة إلى أن (الحايف) يتسلّل إلى (معاطن) الإبل، وينتقي منها الإبل الضخمة، فيسري بما قدُر على السّرى به:

حُبّ الحبيب فتّش القلب تفتيش

العبودي، معجم الحيوان، ج١، ص٢٧٦.

الذود: مجموعة من الإبل. هجام: ضخمة. وانظر لديه، تعريف "الحايف".

تفتيشة الحوفان ذودٍ جهام

(العبودي، ٢٠١١م، ج١، ص٢٧٦. الذود: مجموعة من الإبل. جهام: كثيرة. وانظر لديه، تعريف "الحايف").

ويقول حمود بن سلطان بن بقشه القحطاني، في مدح قومه بأنهم يحوفون، ويغزون، ويغيرون:

حَوّافة غَوّارة ومرزقه

القحطاني، ١٩٩٤، ص٨٧).

وأفعالها تذكر على الجدّان

ومثله يقول محمد العبنق، من الصملة، السبيعي:

حَوّافةٍ في الليل غوّارة الضحى

دَوّاسة الحفيف فوق الركابْ

(السبيعي، ديوان الشاعرعبد الله بن ناصر، ١٤١٦هـ، ص٩٦).

بل إن طايل السلات العتيبي، وكانت عادته الحيافة، ينقل لنا صورة حقيقية لكيفية التسلل، ثم اختطاف نياق خاصة، رادّاً ذلك إلى التوفيق من الله سبحانه وتعالى يقول:

حلفت انا لاضوي ليا هوجع الليل

متهذلفٍ ضيفٍ الــجزل العطيه

أصبحت ألاحي لي نُياقٍ شماشيل

مهديهن المولى عليك وعليه

(العماري، ١٤١٤، ص٩١).

ويقول مبارك المفلح، الملقب بأبي الخِلف؛ لأنه لا يأخذ إلا (الخَلْفَة) في الحيافة، على لسان أحدهم وقد سهر يحرس أبله منه، مبيّناً أنه "ما يأخذ إلا من خيار المتالي":

تلوم عيني ساهره يا بو جالي

تنام وأبا الخلف يذْكَر لينا اليـــوم

ما يأخذ إلا من خيار المتالـــي

عيّش عليها أضعوف ربعه بلا سوم

(العماري، ١٤١٤، ص٩١).

ولدينا صور من صور الحيافة، وأولها تحكي القصة التالية:" ذات ليلة حاف أحد الشيابين إبلاً، وفكّ عقلها، فنذر به صاحب الإبل، ورماه وسط الإبل، وتصارعا، فاستطاع الشيباني الهرب عارياً؛ لأن صاحب الإبل لقوة قبضته خلع ملابسه، فلحقه القوم مشاة، فلما عجزوا عن اللحاق به، طردوه على الخيل، فاختفى عنهم، وحفر زرباً(حفرة) في جفر شعيب، ونزل به، وستره بشجره عن البرد والسباع... وقال هذه القصيدة: رحت حايف يوم أنا راعي حيافه

وأبعدوني قوم ما جبت الكسيبه

جاني الرجال في وسط المخافه

والتزمنا لزمة الهوش العطيبه

شدني قبل القدم يعطي انحرافه

واختلف فكري على كبر المصيبه

والتهمت وصاة أبوي عن الضعافه

قال يا بني لا تهاون للغلـيبه

واعتزيت وشلت نفسي بانحرافه

أطلب المخراج واترك له نصيبه

وانطلقت ورجلي انبرت بالنكافه
ما غمضني كود ثوبي يكتسي به
وطردوني قوم وأخذوا بي مسافه
فوق خيل مدربة ولها حطيبه
وأحمد الله عودوا مني عيافه
عقب ذبيت الزرايب والجذيبه
والتجيت بجرف من فوقه مهافه
وسطها دهلوس عن برد التجي به"
(ابن منديل، ١٩٨٤م، ج٥، ص٩٧).

والثانية قصة مشعان بن عيد الشيباني: "وهو من المشهورين بالحيافة والشجاعة، كما أنه من العدّائين المشهورين، وفي إحدى حيافاته نذرت به امرأة بعد أن استيقظت، وأخبرت زوجها، فلحقوه، فسقط في خبارة (جحر جربوع) فأدركوه. ومثل هذا يسمى (طريح الإبل) لا ينجو من القتل إلا نادراً ليكون نكالاً لغيره ولأن الحائف أعظم خطراً ممن يغير علناً. فتناولوه بأسلحتهم يمزقونه حتى تيقنوا من أنهم أماتوه، وقد كتب الله له الحياة فقد زحف آخر الليل إلى البيوت، فشعرت به صاحبة البيت فجرته إلى (ذرى) حجاب البيت، وفي الصباح أرادوا دفنه فمنعهم صاحب البيت واعتبره جاراً له وعالجه حتى برىء. وبهذه المناسبة قال مشعان:

ضويت يوم الإبل هبهب ضريبه
في ليل برد وتالي الليل ممطور
بغيت مرحول الفريق آغدي به
وغلب نصيب اللي كما قايد الحور
عيا نصيبي لا يبطل نصيبه
وصبر اليا جاني من الرب مقدور"
(ابن منديل، ١٩٨٤م، ج٤، ص ص ٤٧- ٤٨).

ومن الأمثال في (الحنشلة): "مطوع الحنشل منه". (العبودي، ١٤٢٣هـ، ج١، ص٢٠٦).

يقول عبد المحسن العوهلي، وهو يجمع بين(الحنشلة) و(الحيافة)في المعنى:

امطوّع الحنشل منهم
معهم بلسانه وذراعه
عند الوقت يصلي فيهم
وإلى حافوا فَلْ شراعه
(العبودي، ١٤٣٠).

بل هذا زبن بن عمير العتيبي يقول عنه نفسه، جامعاً بين (الطاعة لله) قليلاً و(الحيافة" كثيراً:

مطوّعٍ ساعه وحوّاف ساعات
لقيت له مركاض ما ينحكي به
(العبودي، ١٤٣٠، ج٣، ص١٦).

الحيافة/ (الحنشلة) / الغارة:

هذا شليويح بن ماعز العطاوي، من ذوي عطية، من الروقة، من عتيبة، مثَلُ كل حايف، في نجد، ومثل كل حنشولي في شمال الجزيرة العربية، يقول، وهو أيضاً ما يؤدي إلى التداخل بين الحيافة والغزو:

يا من قلب عانق الفطر الفيح
كنه على كِيرانهنّ محزومي
ما أخلف وعدهن يقع تخلف الريح
وإلا يشد الضلع ضلع البقومي
يا ناشد عني تراني شليويح
قلبي على قطع الخرايم عزومي

إن قلّت الوزنه خذوها المشافيح
أخلي الوزنه لربعي واشومي
وإلى رزقنا الله بذود المصاليح
يصير قسمي من خيار القسومي
وأضوي إلى صكّت علي النوابيح
واللي قد عند الركاب مخدومي
إن كان لحقوا مبعدين المصابيح
معهم من الحافر سواة الغيومي
إلى ضرَبت السابق أم اللواليح
كل رفع يمناه للمنع يومي

(ابن منديل، ١٩٨٤م، ج١، ص١٧٦. وإن قلت الوزنه: كانوا في رحيلهم وغزواتهم يزنون الماء بمكيال صغير، فهو يقول: إذا قلّت الوزنة من الماء للمريض. وانظر، عن شليويح العطاوي ...Oral Poetry Kurppershock،).

وهذا النبيطي السبيعي، الذي يقول عنه ابن منديل: صاحب كرم وشجاعة وغزوات، يقول:

لي فاطر فجّ الذّراعين عيره
يا ليت قبري حط لي في نجيبها
كم درهمت يوم وتالي عشيه
وبليل ما يسري ولو جاع ذيبها
ثم يقول: لي لابة لا غبت عنهم رجوني
كما ترتجي قطّانة الماء عزيبها
وإلى لفينا من مغيبه وجونا
من فودنا كل يجيها نصيبها

(ابن منديل، ١٩٨٤م، ج١، س٢٤١).

فهذه حالة حيافة مؤكدة، فهو يذهب للحيافة، "كم درهمت يوم..." وإن أردنا أن الحدث كان غزواً على طريقة الحيافة، فهذا جائز، فالأمران جِدّ متقاربين. ومثل هذه الحالة نجدها في حالة سعود بن صحرور العقيلي المطيري: "قد اعتداء على إبله وإبل بعض جماعته قوم غزاه ليلاً... [لكنه] حمى إبله وإبل جماعته...يقول:

يا بو بخيته لا طوى حالك الويل
ليتك تحلا يوم ليل البياتـــــي
ما شفت ريمه يوم راحت جهاجيل
عدولة الخطّار والمـــــترفاتي
رديتها يوم اقتفوها هل الخـــيل
ستين خيّالٍ اقتفوها ثبـــــاتي
طاح العقيد وطاح غيره رجاجيل
من فعل يمنى ما تهاب العــداتي
يوم المشوك مثل وبل المــخاييل
ما نمت عنهم والتحفت ابــعباتي

(السناح، ١٤٢٠هـ، ص٩٢).

فنحن هنا أمام غزاة جاؤوا بالليل، سارين، همّهم هو الكسب، النهب، سلب الإبل، ولكنهم جاؤوا في هذه الحالة على ظهور الخيل، ولم يباغتوا أهل الإبل جهاراً نهاراً، وإنما أخذوا الإبل خفية، وبسرّية تامة، ولو لم يدركهم سعود بن صحرور، فيشتبك معهم، لمضوا على وجهتهم بما سلبوه. ولقد استخدم الشاعر التبييت ليلاً "ليل البياتي"، كما يفعل الحوّافون والحناشل، والتبييت لا يعني هنا الإيقاع بالعدوّ، فهذا لم يكن هدفاً، وإنما يقصد أخذ إبلهم خلسة. وهؤلاء لهم (عقيد)، وهي المفردة التي طالما اقترنت بالجيش.

يقول الظاهري: "الغزوات التي يتزعمها العقيد لا يكون فيها راية هي حياقة ومباغتة" (الظاهر، ١٩٨٦م، ج٥، ص١١٣).

وكما جاء هذا الجيش غازياً ليلاً، ولنا أن نتجادل في معنى (الغزو) و(الحيافة)، أو أن نتفق على عدم التفريق بينهما في مثل هذه الحالات، نجد قصة مشابهة لما سبق تقول: "جاء عقيد من سبيع من بوادي رنية والخرمة، ومع ركب يبلغ عددهم خمسة عشر راكباً تقريباً، فأغاروا بعد غروب الشمس في جهة الحوميّة على إبل المقطه... ثم فرّوا بها في سواد الليل" (ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٢، ص١٣٥).

وكيف نميّز بين (الغزو) و (الحيافة) في مثل قول الصبي العايذي:

كم ليلة شتوية بت ســـــاهر
تصبح بها الجوزا تنـــاجي رقيبها
يعط نداها من عشاها ســـبـــيره
من البرد ما يسري ولو جاع ذيبها
تصبح بها حرش العراقيب جثـــم
بالاثفان تعدى وِلْدها عن حليبـــها
ثلاثين يوم دون حوران اســـجها
بليالي شباط يجمد الماء طريبها
غزيت أحسب المغزا قريبٍ وكسوتي
عباتي رجا عيني ليالٍ تشـــيبها

(ابن مندل، ١٩٩٠م، ج٥، ١٢٨).

ويقول الشيخ فيحان بن زريبان، عن إحدى غزواته:

اقفوا وخطرهم عليه حســـيره
من زايد العبرات ما ودعـــوني
وحظ من هو شاف غازي يديره
والنار شِبّت والمساير جونـــي
وخذت لي أيامٍ ما هي كثـيره
وعدتنا واهل الرجا واعـــــدوني
وحِفنا عليهن وانتوينا المسيره
مستردفين مبهـمات البطون
والسبر دزيته برأي بصيره
وتباعدت لهم درب الغبا واتبعوني
والسبر درهم واقتفته المغيره
وغرنا على بوشٍ وساع الركوني
خذناه في خشم التفق والذخيره
ولحقوا وراه المطلبين يحدوني
كل أبلجٍ من فوق قبا ظهـيره
مرفعين سلاحهم يمنعوني
ثم حوّلوا ربعي وصارت صقيره
ربعٍ اليا نخيتهم نومسوني

(السناح، ١٤٢٠هـ، ص١٤١).

وعلى طريقة الحيافة كان هناك "سَبْر"، أي: استطلاع، ثم نهب للإبل، إلا أنه غزو، هرع فيه أصحاب الإبل لإنقاذها، فالتقوا بالغزاة. ويصف جهز ابن الشيخ الفارس هذال بن فهيد الشيباني حالة من حالات غزو مشابه في نواحي جبل (شُوك)، هضبة غرب تثليث، فيقول: يأهل الركاب اللي مهاجيع وبروك
حوفوا عليهن يوم هب البراد
حوفوا عليهن حزة العصر مبـــروك
ركب الدليله واقتفوه العوادي

يا زينهن مهوجرات على شوك
تلقي لهن من فوق شـوك مرادي
يوم المخاير يحسب الباب مصـكوك
ما واق للعيرات روس المبادي
(ابن منديل، ١٩٨٤م، ج٥، ص٨٤).

لذا، فالتداخل بين العملين دقيق جدّاً بحيث يصعب التمييز بينهما إلا في نتائج الفعل وحالاته، فالحائف المشهور شليويح كان فارساً غازياً في بعض وقعاته(العصيمي، ١٩٩٥، ج٢، ٤١٥). وكما هو واضح أعلاه من قول الشيخ فيحان بن زريبان:

وخذت لي أيامٍ ما هي كثـيره
.....

إن (الحيافة) تتحول إلى غزو وغارة، حسب الظروف؛ فالهدف من (الحيافة) هو الكسب بأقل خسائر في الأرواح. وكما مرّ سابقاً، فالحيافة تتوقّف على الظروف بأنواعها، وقد مرّ قول أحد الشيابين:

رحت يوم اني راعي حيافه
وهذا راضي الشحمي العنزي، يقول:
من أول نخفي القدم ما نوقيه
مابي نْعول ولا زرابيل حافي
آطى مواطي الذيب واعدي معاديه
اركض برجلين سْباق خفاف
واطلق من الذود القليّل نواديه
وافرِّح اللي يرتجيني خلافي
لا صوِّتوا وقت العشا بالتواجيه
ما مرقدي عند المعازيب دافي
أشوف شوف الطير واللي قنص فيه
واميّز الأزوال بالاختـــلاف
واليوم عود غايلاته تراقيه
حتى الظهر به حنوة بانهداف
جانا الكبر وبليت به من بلاويه
وراح الصبا مثل الظّعون المقافي ( )
(ابن منديل، ١٩٨٤م، ج٤، ص١٠٥).

ويقول الدسم:

يا ما على عوص الركايب اتبعوني
من فوق حمرا تسرق الدّوٌ سرقا
لا قالوا المرقاب مابي مهونـي
يا ما رقيته وانحِدر منه وارقـــا
وادلّهم لا قطرن الشنونـي
أدَل من حمامة الريش ورقـــــا
(اليوسف، ١٤١٢هـ، ج١، ص١٢٧).

وأخيراً، تبيّن هذه الأبيات المختلطة المنسوبة لكل من الشيخ شالح ابن هدلان، وشليويح، وسواهما، كل ما نحن بصدده:

خاويت شبّان على فِطّرٍ شِيب
كم ماردٍ جيته تعاوى سباعه
يا ما لمسنا قرصنا بالمشاعيب
ويا ما دفعناهن ورا الشمس ساعه
كم ليلةٍ عقّلتها تضرب النِّيب
وانا أتوخّى نبح كلب الجماعه
أضوي عليهم كنهم لي معازيب
وآخذ مهاوية الجمل باندفاعه

أضوي عليهم واتخطى الأطانيب
إلى رمى زين الوسايد قناعه
رحت أتخطّى كنهم لي معازيب
اليا رمى عذب الثنايا قناعه
قمنا نجد من البكار الشخانيب
وجاف القَعَدْ منا صبي الوقاعه

ومعنى البيت الأخير: ابتدأنا نأخذ الإبل الفَتِيَّة الحَلوبة، وأصغرنا سنّاً ممّن كان معنا أخذ ما اقتدر عليه من صغار الإبل.(انظر، ابن منديل، ٢٠٠٣م، ج١، ص١٦٨. الحربي، ١٩٩٠، ص ص٥٧- ٦٣، مع اختلاف في الرواية).

وبعد، فما الفرق بين الحيافة (الحنشلة) والغارة، مع ملاحظة استخدام "مبيّت" (التبييت) أي: التسلّل ليلاً، للنهب والسلب، يقول ابن مشعي:

"غار حمود بن شيبان الحقباني هو ومشوط القحطاني... وضوى مشوط على الديرة وأخذ الإبل حيافة. ولحقوا الحقبان عقب ماراحت الإبل، وفزعوا في أثرها، ولحقوا القوم وقتلوا منهم، وردوا الإبل، والحيّ من القوم لم يسلم منهم إلا الشيخ مشوط، فقال حمود:

أنا هاضني صياح ليل مبيّت
مريب على الجواد ليل العنا لها
جينا ودنينا من الهجن كنّس
نقينا مرادمها ونرمي هزالها
رفقنا بهن بين العشاوين ساعه
لين اجرهد الليل ثم طاب فالها"

(الدوسري، الكنوز الشعبية، ١٩٦١م، ج٢، ص١٧. وانظر، ص ص١٦، ١٨- ٢٠).

وهذا أكثر وضوحاً في قول ابن منديل، الذي جمع معنى الإغارة والحيافة سواء: "أغار رفيع الركابي على شمّر مع قلة من أصحابه للحيافة. وكان ضمن الغنيمة إبل...فلحقهم الكلب هبّاس...ولكن رفيع ردّ الغنيمة من الإبل، بعدما استجار به كلب المُغار عليهم، "هبّاس"، فقال أحد المغار عليهم:

وغاروا علينا القوم قوم الركابي
ومن شيمته رجّع لنا الذود هبّاس
اسمه رفيع ومرتفع ما هو بغابي
مترفّع عن الرذايل والأدناس"

(ابن منديل، ١٩٨٤م، ج٣، ١٧٧).

بل إن ابن منديل يجمع بين الحيافة والغزو، فيبيّن أن "عقيد الجيش"، الذي يخوض الحروب ويغزو، لا يمنع من أن يكون (حايفاً) أيضاً، وبطبيعة الحال، فالحيافة لا تتطلب مثل تلك القيادة، يقول ابن منديل عن حبيليص بن عديس الشيباني: "معروف بالشجاعة وعقيد جيش...وأيضاً مشهور بالحيافة والاختلاس بالليل". (ابن منديل، ١٩٨٤م، ج٣، ص٢٧، وانظر عن العقيد، بوركهارت، ص ص٢٣٩- ٢٤٨).وقد كان الشاعر الشيخ العقيد، مريبد العدواني، أحد من كان يخوف، يقول: للكور فوق سجلة الهجن شدت
تنبز مباهرها المصاليب وحبال
شدّوا على الطوعات من حيث ما انويت
ومَـــدّوا معي ربعـــــــي صعيبين الأفعال

واليا ركبنا بالمعادي تقاصـــيت
ابعد مصابيح النضا وابجد الــلال
كم ليلة في نومها ما تهنيـت
النوم خلّيته بريره للانـذال
وكم مرقب وقت الضحى فيه عدّيـــت
أرقب على النشر ليّا قوّض المال
مرّات نلفي بالغنا والتصاويت
ننحا الرُّوَك بنحور عجلات الاهذال
ومرات نلفي والمزاهب مباحيت
نطوي العمايم والمواجيف قفّـــال

(ابن منديل، ١٩٨٥، ج٤، ص٨٣. الروك: الكسب).

وكان بخيت بن ماعز، وهو أخو شليويح، في مباغتة على (البقوم)، والحظ أنه يصف (شليويح) المشهور بالحيافة بأنه (شيخهم)، أي: أن تلك كانت غارة، يقول عنه ابن منديل: "بمناسبة غارتهم على إبل البقوم بالموضع المعروف (تين وحرة الجوهرية)، يذكر أنهم خلّصوا [أي: البقوم] إبلهم، وهذا اعتراف منه بشجاعة كلٍّ منهم كما يشير إلى ما حدث من إصابة لشيخهم (شليويح) وأنه كان سبباً في نجاته، فيقول:

في لبّة العاقر جرى لي تفاكيـر
ما بين تين وحرة الجوهريـــه
خذنا قطيع فيه رمس المغاتيـر
وعَيّوا على تاليه قوم لضيـــه
لحقوا أهل البل فوق قِبّ مشاهير
يتلون ابن جرشا ذيب السريه
قلنا ميامين وقالوا مياسيـر
ولا ينعدل سيل النحا عن نويه
رديتها يوم الفلي لي مناحير
والحقت شيخ كاسياته ادميـه
رديتها والحقت شيخ المظاهير
وجواد بن متروك صفراء ثنيه

(ابن منديل، ج١، ص ص ١٤٩- ١٥٠).

كان شليويح، حوّافاً، ولكنه في الوقت نفسه قائد، ورئيس، وعقيد، فكان يحوف وحده، وكان غيره يشترك معه، يقول هو نفسه عن مجموعة أصحابه:

يا أهل الركايب علقوا فوقهن زاد
وشيلو عليهن من خفاف ألواني

(ابن بليهد، ج٥، ص٢١١).

ويتحدث أحدهم عن إحدى غزواته معه، فيقول: "جينا غزاة من الروقة ورؤساؤنا شليويح بن ماعز العطاوي وأخوه بخيت ونحن قاصدون قحطان فلما كنا في بلادهم نلتمس لإبلهم وكنا قريب جبل الحصاة، قال بعضنا لبعض: انظروا الإبل خرجت منه، فقال الرئيس شليويح لأخيه بخيت إني أريد أن أقدمكم لأكشف لكم خبر هذه الإبل..." (ابن بليهد، ج٥، ص٢١٢. وانظر غارة شليويح على الهوبجة شمال أشيقر، راكباً فرساً، ومعه أصحابه على الإبل، ابن بليهد، ج٥، ص٢١٢؛ وانظر غارة الحرملية، ص٢١٣).

يقول عبد الله بن هذال المطيري في (الغزو):

ويا زين كسب المال وقت المخاضير
نومي على الطراف والنخمهن خَم

(الأصقه، ١٩٨١، ص١٢٤).

وقد ذهب أحمد وصفي زكريا إلى القول، وقد مرّ بنا بعضه: "الغزو أقسام حسب قلته أو كثرته، فمن قليله (الحنشل) وهو يتألف من ٢- ٣ رجال مشاة، يباغتون أبناء السبيل المنفردين العُزَّل ويسلبونهم، و(السرية)... . ومن الغزو القليل ما يسمّونه (الحُوّاف) وهم ثُلّة من اللصوص المغامرين يتسللون ليلاً إلى حِلَل البدو وهم نائمون، ويسرقون ما تصل إليه أيديهم... فالغزو تشكيل تامّ التجهيز، مؤلّف من فرسان وهجّانه، لا يقل عددهم عن ٥٠- ٦٠، والهجّانة يؤلفون ثلثي المجموع أو ثلاثة أرباعه حسب المسافة التي يجتازونها، لأنهم يحملون الزاد والعتاد أيضاً، ويكون على رأسهم قائد يسمّونه (العقيد)، قد مارس كل ضروب الغزو من الحنشل وما فوق، وعظمت مهارته وخبرته، وعرفت شجاعته وحظوظه..."(زكريا، ص٢٤٩).

وماذا نقول بعد هذا عن قول الأصقه: "تختلف طريقة المغازي حسب عدد الغزاة عدد الغزاة، فإذا كان عددهم كثير، فتكون هجماتهم على الأعداء أثناء النهار؛ أما إذا كانوا أقلية، فيلجأون إلى طريقة الحوافه؛ والحوافه: هي الترصد للأعداء حتى يأخذهم النوم أثناء الليل، أو غفلة أثناءالنهار"(الأصقه، ١٩٨١م، ص٢٩٥) .

نهب الحاجّ

سبق أن أشرنا إلى مثل هذا الوضع، كما تبيّنت لنا بعض جوانبه بعد ذلك، وكما سنرى لاحقاً، أن قطع الطريق كثيراً ما يقع من قِبَل أفراد أو جماعة محدودة، يقول ابن بليهد عنهم:"كان من عاداتهم أن يسرقوا الحاجّ عند دخولهم مكة وعند خروجهم منها"(ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٢، ص١٥٢).

ولكن السؤال: هل قطع طريق الحاّج من قِبَل المجموعات الكبيرة، القبيلة، يُعَدّ غزواً، والغزو عادة على القبائل المعادية، أو هو من أجل الكسب والنهب والسلب، كحالة أولئك (الحنشل)؟ (انظر مثل هذه الحالة، بوركهارت، ص ص٣٠٤، ٣٠٨، ٣٢١، ٣٢٣؛ كمال، د ـ ت، ج٢، ص١٣٢).

(البوق): السرقة- (البوَّاقين) اللصوص: اضطراب في المصطلح.

أثّرت الدراسات الحديثة على الباحثين المعاصرين، حتى المتخصّصين منهم في التراث الشعبي، إذ يدمجون التعريف القانوني للسرقة بالتعريف الاجتماعي لدى البدو، وهنا عدم وعي بالممارسة، حتى إن الراوي، الكاتب المعاصر، يقع في المحظور نفسه حين يقول:

"الحنشلة: أي: السرقة".(الراوي، د- ت، ص٢٨٦).

بل إن ابن بليهد، وقد عايش هذه الأوضاع في أواخر أزمانها يقول:"قاعدة كانت تتبعها الأعراب إلى منتصف القرن الرابع عشر؛ لأن اللصوص إذا عزموا على حيافة الإبل، وعلموا أن عند أهل الإبل خيلاً انهزموا قبل أخذها" (ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٤، ص١٨٤).

ويقول التل، وهو يصف (الحيافة) بالغزو، وإن كان مفهوم (الغزو) خاصّاً بالحرب: "الحائف: عندما يكون الغازي رجلاً واحداً، وهم لصوص الليل يباغتون حِلَل البدو ويسرقون ما تصل إليه أيديهم من متاع. والحائف

يغزو بمفرده فيخطف منهم أطيب إبلهم وأنجب خيلهم ليلاً ...." (التل، ١٩٩٩م، ص١٦٢).

والتلّ يقع في اضطراب حين يسمّي هذا النوع من الغزو، كما ذكـــر: " لصوص"، فهو يقول أيضاً:" قاطع الطريق... يعتبر فاسداً ...بالرغم من أنه لا يرتكب جريمة في محيطه أو قبيلته بل يرتكبها بعيداً عنهم".

مع أنه يقول: "وقد أثر البدو على الحياة السياسية....في قطع الطرق ونهب السابلة وبخاصة طريق الحج" (التل، ١٩٩٩م، ١٥٧).

كما يقول:"والسرقة سواء سميت سرقة أو نهباً ليست عملاً مخجلاً بالنسبة للبدوي بل تعدّ في رأيهم من البطولة" (التل، ١٩٩٩م، ٣٦٤).

ويختلط الأمر نفسه عند العبادي: "السرقة... ليست على مستوى الغزو كأن يقوم بعض صعاليك الحي بسرقة عدد من الإبل أو البقر أو الأغنام...وكان ذلك بين القبائل التي تركت الغزو (الكسب من برا أي من الخارج) وحل محل الغزو، السرقة والصعلكة على مستوى فردي أو جماعي...وكان اللص يسمى (دواس الظلماء) ولا يزال الجيل الذي مارس هذه المهمة... يروون...أن اللصوصية والسرقة كانت نوعاً من الرجولة....."(العبادي، ١٩٦٧م، ص١٣٢).

مع أنه هو نفسه الذي يقرّر:"اللص هو الذي يختلس، ويسرق خلسة بعيداً عن أعين النظار والرقباء، والبدو يحتقرون اللص، ويقدرون الغازي ودواس الظلماء (العبادي، ١٩٦٧م، ٤١٨. وانظر، ابن منديل، ١٩٨٤م، ج٥، ١٢٨، ج٧، ص٥٠).

كما أثّرت الدراسات المعاصرة على دارسي الأدب الشعبي، فتحدثوا عن تشكيل عصابات....بديلاً عن أسرهم وعشائرهم...كما كانوا يستخدمون من قِبَل السياسيين في الأعمال الانتقامية والبطش بخصومهم، وقد يلجأ بعض الخلعاء إلى الأماكن المقدسة ليعيش في أمن حرمها" (التل، ١٩٩٩م، ١٨٤).

وهنا تداخلت المعلومات، وتدّخلت الثقافة، فبعُد الكاتب عمّا كان يدرسه ويطرحه في سياق مختلف. وقد وقع في هذا حتى ابن منديل عندما استعمل كلمة "سرق" في كتابه، ويعني بها الأخذ والكسب.(ابن منديل، ١٩٨٤، ج٧، ص٢٢).

ولاشك أن مفهوم السرقة خاصّ بالحاضرة، وليس بالبادية، فهذا العبودي يقول:"الحايف: السارق الذي ينتهب الإبل يأتي في الليل متلصّصاً يلتمس غِرة منهم وغفلة من رقيبهم فيأخذ منها ما استطاع أن يأخذ أو يقبضوا عليه" (العبودي، ١٤٢٣هـ، ج١، ١٦٤).

كما يقول: "الحنشولي: السارق المختلس الذي يسرق الماشية خاصة كالأبل والغنم وأكثر ما يقال ذلك لمن يسرق الإبل خلسة....السارق إذا كان يتبع القوم وهو راجل فإنه حنشولي وجمعه حناشل...وإذا لم يجد الحنشولي ماشية يسرقها وهو لا يسرق إلا واحدة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يجده حتى ثياب من يصادفهم من أهل الحضر" (العبودي، ١٤٢٣، ص٢٠٦).

ومن الواضح هنا أن (الحنشل)- فيما يخصّ نجداً- يأخذون ما يستطيعون حمله، فلا يقتصر ذلك على الإبل، بل الماشية بشتى أنواعها، حتى إن (الحمير)

كانت بعضاً مما يسلبون، إذ كانت ذات قيمة مادية ومعنوية، يقول ابن بليهد عن مجموعة من (الحنشل):

"أخذوا ثلاثة حمير" (ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٥، ص٢٥٦).

ويقول عبيدان المرشدي:

اسمع كلامٍ قليـــل أخذت حمير في الليل

وحنا جياعٍ مهازيل وركبناها مثل الخيـل

(ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٥، ص٢٥٦).

ومهما يكن، فإن عدم وضوح الرؤية لدى الدارسين يجعلهم لا يميِّزون بين هذه الأفعال و"السرقة"، فعلى حين يقرّر كمال أبو حسان، "السرقة" بمفهومها المتعارف عليه، يأتي، فيتحدث عن "الغزو"، ويقول:

" سرقة رَدّ النَّقى: وهذا النوع من السرقة مباح لدى البدو كأنها تقع في أموال عشيرة معادية، وهو نوع من الغزو المبسط ولذلك، فإن كل فرد من العشيرة أن يستعمل جميع الطرق من أجل سرقة إبل ومواشي العشيرة المعادية لعشيرته لأن ظروف حالة الحرب بين العشيرتين تجعل السرقة مشروعة في عرف البادية بل قد يكون القيام بها واجباً" (كمال، ١٩٧٤م، ص٢٧١).

ولعل تلك الإشكالات في الخلط بين تلك الممارسات ومفهوم(السرقة) يأتي في مثل القول الذي مرّ بنا، وفيه تسمية (الحيافة) سرقة، فيقول:

والله لا أجيب السَّرق لين ياتيك

والعقل وانتي يا ذلولي سموحي

إن مفهوم (السرقة)، كمفهوم (الحرامية)، في حالة نهب الأعداء، يقول بوركهارت عن البدوي: "مصطلح "حرامي" عنده واحد من الألقاب التي يطرب لها، والتي تعني أنه بطل فتي" (بوركهارت، ص١٤٢. والغريب أن بوركهارت لم يستخدم قط مصطلح الحيافة أو الحنشلة، مع أنه يتحدث عن أفعالهما).

أما (البوق)، بمعنى السرقة، فنجده في مثل قول عبد العزيز الهذيلي: والعيب باق الخوي في قشاره (العبودي، ١٤٣٠، ج١، ص١٠٦).

وضع مختلّ حقّاً، كانت (الحنشلة) و (الحيافة) ممارسة مشروعة بين البدو، وكانت القبيلة تشكّل كياناً مستقلاً، وكانت هناك سلطات رسمية فيما يكوّن المملكة العربية السعودية وسواها الآن، إلا أن تلك السلطات كانت محدودة، وغير مؤثّرة، وهي نفسها مطبوعة بطابع قبلي أو غير تنفيذي، إنها عبارة عن جهاز إداري فقط، فمثلاً نجد شويمي العتيبي الشيباني الحنشولي المعروف مطارداً في الحجاز، وأوقع الحاكم العسكري التركي القصاصَ بشويمي الشيباني من منطقة عفيف. وهو نفسه قال عن نفسه:

وانا مالي بعارين ولا معزا ولا ضان

ولا يقع ما حصلت يمناي في شق الحراميه

(العصيمي، ١٩٩٥م، ج١، ص١٠٤).

على أن شويمي هذا لم يكن منبوذاً، أو خارجاً على قومه، بل إن عتيبة القاطنة في نواحي الحجاز تأثّرت أيَّما تأثّر لّما قُطعت يده. وها هي مرسى العطاوية ترثيه، فتقول: وله دلة دايم على النار مركاه (ابن بليهد، ١٩٧٢م، ج٣، ص١٥٣).

كما يروى رواية شخصية حكاها لي أحد المعمّرين من أهل الأحساء أن الحاكم العسكري في الأحساء حكم على خمسة عشر رجلاً من البدو ممّن قطعوا الطريق بين

العُقير والمُفّوف بالموت دفناً وهم أحياء، وترك رؤوسهم ينهشها الذئب، ونجا أحدهم بعد أن جرّه الذئب من أذنه من حفرته، فهرب.

وحقّاً أيضاً أن رؤساء العجمان طلبوا من الإمام فيصل بن تركي الصلح والأمان، وذلك للأعمال التي ارتكبوها من قطع الطريق وأخذ أموال الناس، فوافق على أن يدفعوا كل ما أخذوا من المسلمين (الزهراني، ٢٠٠٤م، ص٧٤٤).

غير أن ذلك كان في فترات عابرة، واستمرّت القبائل على طريقتها، لا يرون جميعاً في ذلك ما يضير، كما استمرّت بينهم الغزوات والحروب. إن ما علينا النظر فيه هو أنه مع وجود قوىً محليّة، ذات نفوذ، فإن تلك الممارسات كانت عامة، وليست خاصةً، أي: لم يقم بها أفراد خرجوا عن عرف المجتمع وتقاليده، بل كان ذلك ضمن السلوك العام للمجتمع العشائري في البوادي والمناطق البدوية.

كانت الحيافة خطراً، لا يقدم عليها إلا ذو قلب جسور، وكانت مواجهتها تتطلب أساليب خاصة، فمنها أنه: "كانت عادة القوم أنهم إذا قبضوا على الحايف بالليل وسط الإبل يربطونه بالحديد لمدة طويلة حتى يشتريه أهله بعدة من الإبل" (ابن منديل، ١٩٨٤م، ج١، ١٨٤؛ وانظر، بوركهارت، ١٤٣٤هـ، ص ص ١٤٣ – ١٤٨، ٢٥٧ - ٢٥٨)..

ولعل من أمثلة ذلك وقوع العقيد المشهور غضبان بن رمال الذي وقع في الأسر ذات مرة، فهمّ أعداؤه بسمل عينيه، أو سلخ مواطىء رجليه؛ لأنه أرعبهم بالحيافة مرات عديدة(العماري، ١٩٩٤م، ص٩١).

وأخيراً، فلبيان الدور الذي كان يقوم به البدو في قطع الطريق، وهو نوع من أنواع تلك الممارسات، نذكر قول الهويمل: "كان من حسنات الملك عبدالعزيز آل سعود تأمين طرق الحج وقطع دابر السُّرّاق الذين يخيفون الحجاج ويسلبونهم أموالهم وقد يزهقون أرواحهم"(الهويمل، ١٤٣٢/٥/٢٨هـ ت ٢٠١١/٥/٣١م، ص٣١).

وسبق أن وجدنا العبودي يقول: "المسافرون قبل استتباب الأمن خلال الحكم السعودي ينادون في الليل بعضهم بعضا قائلين: (عليكم) حوف تنبهوا وانظروا...)...".

ويعلّق حسين المناصرة على رواية محمود تراوي، في روايته، "ميمونة"، وعبده خال في رواية "مدن تأكل العشب"، فيقول: "يقع الحُجّاج عموماً في طريقهم إلى الحرمين، وأيضاً إلى المسجد الأقصى، عرضة لقُطّاع الطرق الذين يسرقون أمتعة الحجاج وأموالهم، بل يسرقونهم أنفسهم ويبيعونهم في مناطق شتى بوصفهم رقيقاً... الطرق بين مكة والمدينة أو الطرق إليهما... طرق يسكنها رُعب البدو"(المناصرة، ٢٠١٠، ص٣٢. وانظر، ص ص ٣٣- ٣٤).

ولعل دراسات مستقبلية تتحقّق من هذه المعلومة الأخيرة؛ لأنه من المعلوم يقيناً تعرّض الحجيج إلى قطع الطريق، وسلبهم كل ما بأيديهم، أما هل يسرقون الحجّاج أنفسهم، ويبيعنهم رقيقاً، فهذا ما لم يرد في أخبار الحوّافين، بيد أن هذا لا يعني أن قطّاع الطرق هؤلاء، أي: الذين تذكرهم رواية "مدن تأكل العشب"،

كانوا بمنأى عن تلك الممارسات، وإن اختلفت المسميات (قارن هذا ببوركهارت، ص٤٣٤هـ، ص١٣٣).

وبعد: أيصحّ أن نقول، كما قال بوركهارت عن "العرب"، وهو يعني البدو خاصة، في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وهو يقصد بالنهب كل أنواع الغزو:

"قد يقال عن العرب: إنهم قوم من النهّابين الذين عملهم الأساسي هو النهب، وهو موضوع تفكيرهم باستمرار. ولكن يجب عدم ربط هذا العمل بمفهوم الجريمة نفسه الذي يُلصق بقطاع الطرق ولصوص المنازل، واللصوص عموماً في أوروبا. فالعربي الذي يمارس النهب يَعُدّ عمله عملاً مشرِّفاً... إن العربي يفتخر، عادة، بنهب أعدائه، والإتيان بما نهبه ممّا لم يستطع أخذه في حرب مفتوحة"؟ (بوركهارت، ١٤٣٤هـ، ص١٤٢).

المصادر والمراجع

أبو ديب، كمال، *الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

الأصقه، شاهر محسن، *كنز من الماضي*، الكويت: مساعد الساير، ١٩٨١م.

أمين، أحمد، *الصعلكة والفتوة في الإسلام*، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢م.

البلادي، عاتق بن غيث، *معجم معالم الحجاز*، مكة المكرمة: دار مكة، ط١، ١٩٧٩م.

ابن بليهد، محمد بن عبد الله، *صحيح الأخبار*، القاهرة: السنة المحمدية، ١٩٧٢م.

بوركهارت، جون لويس، *ملاحظات عن البدو والوهابيين*، ترجمة: عبدالله الصالح العثيمين، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٣٤هـ.

التل، غسان نيازي، *المجتمع العشائري، قضايا ومشكلات*، عمان: دار الكندي، ١٩٩٩م.

ابن جنيدل، محمد بن سعد، *عالية نجد*، الرياض: دار اليمامة، ١٩٧٩م.

الحاتم، عبد الله بن خالد: *خيار ما يلتقط من شعر النبط*، ج٢، الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨١م.

الحربي، فايز بن موسى البدراني، *من أخبار القبائل*، الرياض: دار البدراني، ١٤٢٣هـ.

أبو حسان، كمال، *تراث البدو القضائي*، عمان: دار الثقافة والفنون، ١٩٧٤م.

خليف، يوسف، *الشعراء الصعاليك*، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩م.

الدوسري، محمد بن مشعي آل صالح، *الكنوز الشعبية*، القاهرة: دار الجيل، ١٩٦١م.

الراوي، عبد الجبار، *البادية*، العراق: مديرية إدارة البادية، د- ت.

زكريا، أحمد وصفي، *عشائر الشام*، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٩٨٣م.

زناتي، محمود سلام، *نظم العرب القبلية المعاصرة*، القاهرة، ؟، ط١، ١٩٩٣م.

الزهراني، حصة بن جمعان الهلالي، *الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة السعودية الثانية*، الرياض: الدارة، ٢٠٠٤م.

السبيعي، عيد بن مدعج آل بليدان، *ديوان الشاعر عبد الله بن ناصر بن شيحان الجبري السبيعي وشيء من مروياته، الرياض:* النرجس التجارية، ١٤١٦هـ.

السناح، عبد العزيز بن سعد، *شعراء من مطير*، الرياض، مط النرجس، ١٤٢٠هـ.

ضيف، شوقي، *العصر الجاهلي*، القاهرة: دار المعارف ط٨، ١٩٧٧م.

الظاهري، أبوعبدالرحمن، محمد بن عمر، *ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد*، الرياض: دار العلوم، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

العبادي، أحمد هويدي، *من القيم والآداب البدوية*، *عَمّان*: وكالة الصحافة الأردنية، ١٩٦٧م.

العبودي، محمد بن ناصر، *بلاد القصيم*، لرياض، دار اليمامة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

معجم الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

معجم الحيوان، الرياض، مكتبة الملك فهد، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

كلمات قضت، الرياض: الدارة، ١٤٣٣هـ.

العجمي، فهد الفردوس، *من آداب الشعراء والفرسان الأوائل*، صوت الخليج، ١٩٨٢م.

العصيمي، محمد بن دخيل، *شعراء عتيبة*، الخبر: المدوخل، ١٩٩٥م.

العماري، فضل بن عمار، *الصعلكة.. الحياقة (الحنشلة)*، مجلة الحرس الوطني، س٥١، ع،١٢٧(رجب ١٤١٤هـ - يناير١٩٩٤م).

الفليح، سليمان، *إنه العرف يا سادة*، *الجزيرة*، الثلاثاء (١٤٣٢/٢/٢١هـ/٢٠١١/١/٢٥م.

الفليح، سليمان، *دفاعاً عن الصعلكة*، الجزيرة، ع١٤٦٠٠ (١٤٣٣/١١/٢هـ /٢٠١٢/٩/١٨م.

القحطاني، خالد بن محمد، *منتقى الأخبار من القصص والأشعار*، الرياض: الفرزدق، ١٩٩٤م.

كمال، محمد سعيد، *الأزهارالنادية*، القاهرة: مط دار الكتاب العربي، د ت.

محجوب، عبده، *مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية*، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٤م.

المطيري، حمدان، *بن مرزوق بن مجلي*، تاريخ الدياحين، د – ن، ط١، ٢٠٠٠.م.

المناصرة، حسين، *وهج السرد*، الأردن، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م.

ابن منديل، محمد بن فهيد، *من آدابنا الشعبية*، الرياض: الفرزدق، ١٩٨٤م.

الهويمل، حسن بن فهد، *أهي نكهة مكية واحدة أم نكهات متعددة*، الجزيرة، الثلاثاء (٢٨-١٤٣٢/٥/٣١/٢٠١١/٥).

اليوسف، إبراهيم بن عبد الله، *قصة وأبيات* (الرياض: مرام للطباعة الإلكترونية، ١٤١٢هـ).

المراجع الأجنبية:

Kurppershoc, P. Marcel: Oral Poetry And Narratives From Central Arabia, 11, Story of A Desert Knight, The Legend Of Sliwih Al-Atawi And Another Utaybeh Heroes, *Leiden: E. J Brill,19930*